الطنطاوي عناق الفقه والفكر والأدب

بقلم: إبراهيم الألمعي
السعودية

عاش الطنطاوي زمناً ملء السمع والبصر، عاش مؤنساً وموجهاً وداعياً وناصحاً لنا، فأحببنا فيه أنفسنا، وبعد رحيله نعيش على ذكريات الزمن الجميل، زمن ابن باز وابن عثيمين والطنطاوي والغزالي، والشعراوي ومحمود شاكر، والزرقا، أولئك العمالقة الذين توجهوا نحو السماء واحداً بعد الآخر، أقف اليوم لأكتب بدموع الحب والوفاء كلمات في رثائه، أخص بها مجلة الأدب الإسلامي، التي تؤدي واجباً لرائد الأدب الإسلامي، وأستاذ رائده، فالطنطاوي أستاذ «عبد الرحمن رأفت الباشا» رائد الأدب الإسلامي، ولقد كتبت عن الطنطاوي - رحمه الله - في ملحق الأربعاء، وفي مجلة المعرفة، وفي جريدة الشرق الأوسط، وكتب عنه الكثير ورثاه الشعراء والأدباء والعلماء، غير أن هذا كله ليس قطرة في بحر عطائه، وهو صاحب معلقة التسعين عاماً في خدمة الإسلام والعربية والفضيلة والخير والجمال وتربية الأجيال:

ورحلت والتسعون عمر أول
وبناؤك الأجيال عمـــــر ثان

مع أدب الطنطاوي :

عن أدب الطنطاوي حدث ولا حرج، يقول الأستاذ سعود الصاعدي: «إن أدب الطنطاوي يرتكز على محاور عدة، جعلت منه أدباً محلقاً يرفرف في سماء الأدب العربي، وهذه المحاور لم تأت في أدب الشيخ الطنطاوي اعتباطاً، وإنما تعكس مقدرة الشيخ البيانية والأدبية، والثقافية والتاريخية، كذلك والدينية»[١].

ثم أشار في مقالته إلى محاور ستة هي:

١- اللغة والأسلوب.
٢- الخيال المتزن.
٣- الحجج العقلية المقنعة.
٤- العاطفة الصادقة.
٥- الطرفة الهادفة.
٦- الهدف.

وعن أدوات الطنطاوي الأدبية يقول: «.. وهو أيضاً كاتب وروائي وقاص، يملك أدوات الأديب المكتمل غير أنه ليس بشاعر، ولا فرق بينه وبين الشاعر إلا الوزن الذي هو العمود الفقري للشعر، وما عدا ذلك فكل ما عند الشاعر عنده، بل وأوضح بياناً، وأقوى لغة»[٢].

الطنطاوي الشيخ الأديب الذي أحبه الناس على اختلاف مشاربهم، وتنوع همومهم، نتيجة اقتناعهم به فقيهاً وأديباً صاحب قلم يترفع فيه عن مجاراة التيار ويرفض الخنوع، ويخاطب العقول والقلوب على حد سواء.

يقول الدكتور عبد الله مناع رئيس تحرير مجلة الإعلام: «عندما رأيته واستمعت له.. وجدتني اقترب منه.. ثم تحول القرب إعجاباً.. فحباً.. فولها به، وبفكره الحر وعقله الواعي المتأمل في معاني النصوص ومغازيها، وصدقه وجرأته على قول الحق ولو خالف به من خالف.. بل وبصوته ورشاقة عبارته، وخفة دمه التي لا تخفى على أحد»[٣]

أما في مجال التحديث فله القدح المعلى، شهد له بذلك أساتذة النقد الإذاعي، يقول الدكتور. أحمد بسام ساعي: «ورغم تألق عديد من المحدثين العرب في ثلث القرن الأخير، على مدى حدود الوطن العربي، يظل علي الطنطاوي المحدث العربي الأكبر، الذي يستقطب من أعداد الجمهور ما لا يطمح إليه الآخرون، ويظل كذلك الأفضل بين من نستعين بطرائقهم التحديثية حين نضع القواعد الفنية للحديث الإذاعي»[٤].

وعنه يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «شارك الشيخ - وهو طالب - في مقاومة الاحتلال الفرنسي لسوريا، وكان يحرض الطلاب، ويحرك الجماهير ويسير المظاهرات، ويلهب الحماسة بخطبه النارية، وبيانه الساحر، وأصابه في ذلك ما أصابه حيث اعتقل وأودع السجن»[٥]

ويصفه بأنه «أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء»[٦] وهو يعرف منزلته من الأدب، وإن سكت عن بيانه بعض الناس غمطاً له وحسداً، يقول في زفرة مصدور: «إنهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له في باب الارتجال والإثارة، وإيقاظ الهمم، وصب الحمم أحد، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق.

أستغفر الله، فما أحب الفخر ولكني اضطررت فقلت، وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حقي؟»[٧]

وإذا أردت يا قارئي أن تعرف ما هو «السهل الممتنع» حقيقة لا وصفاً، فاقرأ علي الطنطاوي أو اسمعه، فأسلوبه هو السهل الممتنع في صورة من أندر صوره، في سهولته وسلاسته، وسلامته، وبلاغته وسحره وحلاوته، ودقته المدهشة في التصوير والتعبير، وقدرته الفائقة على تيسير العسير، وتقريب البعيد، والوصول بالأفكار والمشاعر، والحقائق والمعارف، بطريقة بسيطة مفهومة محكمة محببة، إلى الكبير والصغير، والمرأة والرجل، والمتعلم والعامي، من مختلف طبقات الناس» [٨].

الطرفة عند الطنطاوي :

أما الطرفة الهادفة، فقد أخذت نصيباً من اهتمام الشيخ الطنطاوي، فوظفها أحسن توظيف، وعرضها بأجمل أسلوب، كما في كثير من الموضوعات مثل «أعرابي في سينما»[٩] و«أعرابي في حمام»[١٠] و«سيدة»[١١] و«موضوع إنشاء»[١٢] و«في الترام»[١٣] وغيرها.

الطنطاوي مؤرخا :

عندما يعمل الطنطاوي قلمه في أحداث التاريخ، فيصور التاريخ بقلم الأديب، الذي لا يخرج الحدث عن إطاره التاريخي، ولكنه يلبسه ثوباً يجعله أبلغ أثراً وأكبر قدراً في نفس المتلقي، فعل ذلك في حوادث عدة، فخرج كتابه «قصص من التاريخ»[١٤] الذي كان غاية في الروعة والجمال، ينتزع القصة من رفاة التاريخ فينفخ فيها الروح من سحر بيانه، فإذا هي تنبض بالحياة، وتنطق بألسنة أبطالها، وتشهد على عصرها، وتنبي

عن العبرة العظيمة التي من أجلها استهلها الطنطاوي، ليقول: اعتبروا يا أولي الأبصار.

وقد بلغ من إبداعه في معالجة الخبر التاريخي، بأسلوب الروائي العظيم، أنه لما كتب خطبة من إنشائه على لسان سبط ابن الجوزي[١٥]، ظنها الناس خطبة سبط ابن الجوزي حقيقة، حتى إن خطيب المسجد الحرام رواها في خطبة الجمعة على أنها لسبط ابن الجوزي حقيقة، وانظر في كتابه هذا إلى سحر البيان في «هجرة معلم»[١٦] و«ابن الحب»[١٧] و«وديعة الله»[١٨] وسائر القصص.

الطنطاوي كما يرى نفسه :

عندما يكتب الطنطاوي عن نفسه فإنما يصور حال الناس ونفوسهم، فيرى القارئ نفسه في مقالات الطنطاوي، ففي تلك الصورة التي رسمها لنفسه بقلمه سنة ١٩٣٦م يقول: «.. وهو أسرع الناس إلى المزاح والفكاهة، وأضيقهم بمجالس الجد وأبعدهم عن تكلف الوقار، واتباع «الرسميات»، فلا يكون في مجلس إلا حركه بحديثه وإشاراته، ونكاته وأفاض عليه روح المرح والود الخالص، ولكن موجة من الحزن المفاجئ، قد تطغى على قلبه في أشد الساعات سروراً وأكثر المجالس طرباً، فإذا هو حزين كئيب..»[١٩]

وهو يثبت أن الإسلام ليس كلمات تقال، أو مظاهر تتشكل أومجرد طقوس، بل هو سلوك واعتقاد، وحسن معاملة ومما يقول: «إنني أكتب لنفي صناعة المشيخة، وإفهام الناس أن المسألة ليست بالعمامة والجبة، ولكن بالعلم والتقى، وأن علينا إذا أمرنا بالمعروف أن نجعل أمرنا بالمعروف، وأن نستن بسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الدعوة، وأعوذ بالله أن أقول لأحد: اكتم الحق ليقول الناس إنك لطيف، أو أقرر الباطل الذي تراه ليقول الناس: إنك مهذب، أو ساير الناس في طريق الإثم ليقولوا: إنك اجتماعي»[٢٠] وهذا منهجه في الدعوة الذي اختطه لنفسه كاتباً وخطيباً، وواعظاً وأديباً.

ذائقة الطنطاوي :

الطنطاوي متذوق رائع، وناقد نافذ البصيرة، دقيق في استشهاداته الشعرية، بارع في التقاط مكامن الجمال في البيت أو القصيدة، انظر إلى وصفه مرثية مالك بن الريب «.. قصيدة وهبها للموت، إذ تغنى له فيها، فوهب له بها الحياة، لم يتفلسف فيها تفلسف المعري، ولا تجبر تجبر المتنبي، ولا أغرب إغراب الدريدي، ولكنه جاء بأقرب الأفكار، في أسهل الألفاظ، فجاءت من هذه السهولة عظمة القصيدة»[٢١]

وانظر إن شئت تلمس ذائقته الشعرية والنقدية في مثل: «حلم في نجد»[٢٢] و«الأعرابي والشعر»[٢٣] و«شوارد الشواهد»[٢٤] و«الأبيوردي»[٢٥] و«شاعر يرثي نفسه»[٢٦] و«عائشة التيمورية»[٢٧] و«أنور العطار شاعر الحب والألم والطبيعة»[٢٨] و«النشيد السوري»[٢٩] و«من غزل الفقهاء»[٣٠] وغيرها من الدراسات الشعرية في ثنايا كتبه.

والطنطاوي كان يرى أنه لا غنى للإنسانية عن الشعر، فهو من لوازمها، فمن لم يتذوقه ويطرب له فما هو - عند الطنطاوي - بإنسان.

يقول: «.. فكيف يكون فيها «أي الدنيا» من يكره الشعر، وهوجمال القول، وفتنة الكلام؟وهو لغة القلب، فمن لم يفهمه لم يكن من ذوي القلوب، وهو صورة النفس،فمن لم يجد فيه صورته لم يكن إلا جماداً، وهو حديث الذكريات والآمال، فمن لم يذكر ماضياً ولم يرج مستقبلاً، ولم يعرف من نفسه لذة ولا ألماً فليس بإنسان»[٣١].

وليس كل ما يسمى شعراً يحظى عند الطنطاوي بهذه المنزلة، فهو يعتبر نسبة ما يسمى بالشعر الحر إلى الشعر تزويراً، ويظهر هذا في مواطن عدة، وفي أسلوب نقدي متهكم يقول: «رحم الله الأستاذ العقاد عندما كان رئيس لجنة الشعر، قدموا إليه بعض هذا الذي يسمونه شعر الحداثة، فأحاله إلى لجنة النثر لأنه أراد أن يدخل مدينة الشعر بجواز سفر مزور فرده إلى موطنه، ولولا أنه رحمه وأشفق عليه لأحاله إلى محكمة الجنايات بتهمة التزوير»[٣٢]

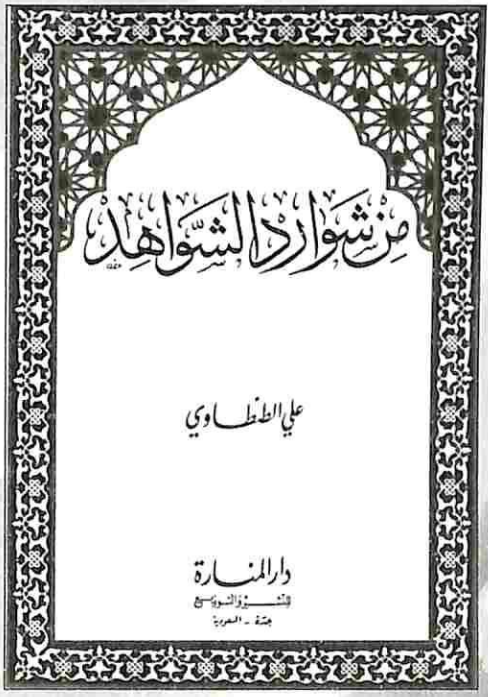

ويقول في موضع آخر: «شعر (الحداثة) الذي يشبه (الحدث) الأكبر، ولكنه لا يطهره شيء ولا الغسل سبعاً، إحداهن بتراب المقبرة الذي يتمنون أن يدفنوا فيها الشعر»[٣٣].

والإشادة بعظمة الأدب تظهر جلية في مواقف وصفحات كثيرة، فيما كتب الطنطاوي،ولكنه الأدب العبقري، الممتد على جسر من اللغة الفصيحة والصاعد على قمة من البيان، المتمثل في رشاقة الأسلوب، وعظمة الأفكار.

«.. من هنا جاءت عظمة الأدب،

وجاء خلوده، إنه ليس كالعلوم، إن قرأ طالب الطب في كتاب ألف قبل أربعين سنة، سقط في الامتحان، أما طالب الأدب فيقرأ شعرا قيل من ألف وخمسمئة سنة، ولا يزال جديداً، كأنه قيل اليوم..

لا أعني الشعر الذي هو الرنات والأوزان، ولا الألفاظ المنمقة التي لا تحمل معنى، ولكن أعني بالشعر، حديث النفس، ولغة القلب، وكل ما يهز ويشجي، ويبعث الذكريات، وينشئ الآمال، ويقيم النهضات، ويحيي الأمم، الشعر الذي يشعرك أنه يحملك إلى عالم غير هذا العالم»[٣٤]

والطنطاوي مع اعتزازه بالأدب، لا ينساق وراء كل ما يسمى أدباً بل يريده أدباً سامياً راقياً، كتب في ذلك وسطر المقالات التي تستنهض الأدباء إلى السمو في اللغة والأسلوب والرقي في الأدب ليكون بانيا للأمم، وممجداً للدين والأخلاق والقيم، وداعياً إليها، ومذكراً بالفضائل، ظهر ذلك في كل كتبه، واقرأ إن شئت: «بين العلم والأدب»[٣٥] و«في النقد»[٣٦] و«أنا والنجوم»[٣٧] و«أنا والقلم»[٣٨] و«أدب هذا.. أم ماذا؟»[٣٩] و«دفاع عن الأدب»[٤٠] و«مستقبل الأدب»[٤١] وكثير مما كتب في أثناء كتبه ومقالاته، وذكرياته.

اللغة العربية عند الطنطاوي:

أما اللغةالعربية، فكانت عند الطنطاوي كبرى المعجزات، التي لا يستطيع أحد أن يكشف كل أسرارها، ويقتحم كل مكامن جمالها، وهل الأدب العربي إلا ابن اللغة العربية، الذي لا يقوم إلا بها، ولا يظهر جميلاً إلا في إهابها، وما أعظم العربية عندما تلد الأدب العظيم، على يد الأديب العظيم فتتمثل بهذه المقومات أرقى أنواع الأدب، شعراً ونثراً. «إن اللغة العربية معجزة الذهن البشري، وأعجوبة التاريخ في عصوره كلها، وإذا كان التاريخ يذكر ولادة كل لغة ويعرف مراحل نموها ومدارج اكتمالها، فإن العربية أقدم قدماً من التاريخ نفسه، فلا يعرفها إلا كاملة النمو، بالغة النضج..»[٤٢]

وهكذا يتكلم الطنطاوي دائماً عن اللغة العربية، روعة وجمالاً، وسحراً وبياناً في كل كتاباته عنها، فنشر مقالات في الدفاع عنها وتمجيدها فكتب «دفاع عن العربية»[٤٣] و«لغتكم يا أيها العرب»[٤٤]، «آفة اللغة هذا النحو»[٤٥] و«لو أقر المجمع»[٤٦].. وغيرها.

ولهذا عرفه الناس خط الدفاع الأول في عصره عن العربية، في وجه كل الدعاوي ضدها، يقول الدكتور عبدالرحمن العشماوي عنه في مرثيته:

مضى الأديب العصامي الذي احتفلت
به البلاغة وازدانت روابيها
مضى، كأن لم يصافح كفه قلم
عذب يذود عن الفصحى ويحميها
يا مازج العلم بالآداب في زمن
آدابه انسلخت مما يزكيها
عزت بك اللغة الفصحى وكنت بما
أوتيت من فكرك الصافي تغذيها[٤٧]

الحب عند الطنطاوي:

لقد اجتمعت لشيخنا الطنطاوي إلى جانب فقهه وعلمه الشرعي، وأدبه الراقي، نفس شفافة، وذوق رفيع، فنطق أعذب الكلمات وأخلدها، وأجمل الأوصاف وأوضحها، فتحدث عن الحب الذي يعتبره من أسرار الوجود، وكتب عنه ما يعجز عن كتابته مجانين العشق، فضلاً عن الفقهاء والمفكرين، فكثيراً ما يلحق بقارئه في مدارج عالية، على أجنحة من العاطفة الجياشة، والحب الطاهر، والبيان الرفيع.

يقول عن الحب: «يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه، والفضيلة والرذيلة، والطموح والحسد، ولكن لا يمحوه شيء.

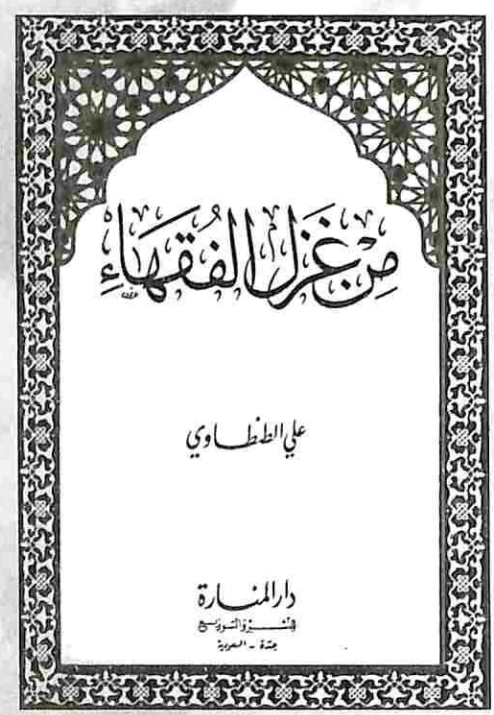

الحب أحجية الوجود.. ليس في الناس من لم يعرف الحب، وليس فيهم من عرف ما هو الحب.

الحب مشكلة العقل التي لا تحل، ولكنه حقيقة القلب الكبرى.. الحب أضعف مخلوق وأقواه، يختبئ في النظرة الخاطفة من العين الفاتنة، وفي الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية، وفي البسمة المومضة من الثغر الجميل. ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً، فيبني الحياة ويهدمها، ويقيم العروش ويثلها، ويفعل في الدنيا الأفاعيل»[٤٨]

ها هو ذا الحب يتحول عند الطنطاوي إلى مخلوق حي، يختبئ خلف الجفون، وفي رنات الصوت الجميل، ويكشف في ذكرياته سراً آخر من أسرار الحب والجمال، فيقول: «كم

قال الشعراء، وكم كتب الكتاب في «الحب»، فهل أحاطوا بمعاني الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟.

وهو يرى أن الحب والأدب والإنسانية، متلازمات، فالأدب هو وسيلة التفاهم بين المحبين، يعبرون من خلاله عن الحب الذي به تبقى الإنسانية ببقاء الجنس البشري، يقول: «إن الأدب ضروري للبشر ضرورة الهواء، ودليل ذلك أن البشرية قد عاشت قروناً طويلة من غير علم، وما العلم إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبوا.. ولكن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب، وأظن أن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى كلمة الحب، لمكان الغريزة من نفسه، ولأنها «أعني غريزة حفظ النوع» كانت أقوى فيه، والحاجة إليها أشد، وبقاء النوع معلق بها، فكانت كلمة الحب الأولى أول سطر في سفر الآداب، كتبت يوم لم يكن علم، ولا عرفت كلمة العلم.. ودرج البشر على ذلك فلم يستغن أحد عن الأدب، ولم يعش إلا به، ولكن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً. وهؤلاء الأكابر من العلماء كانوا يضطرون في ساعات من ليل أو نهار، إلى مطالعة ديوان شعر، أو النظر في قصة أدبية، أو صورة فنية ليلبوا صوت العاطفة، ويستمعوا نداء الشعور.

الشيخ ابن عثيمين

رحم الله الطنطاوي :

لله در الطنطاوي، أي نفس شفافة سكنت بين جنبيه؟! وأي قلب قوي حوى صدره؟! وأي فكر وعى ذهنه المتقد؟!

وإني لأعجب أيضاً من الظلم الذي تعرض له في حياته من قبل الهيئات، ووسائل الإعلام والجامعات، فلم ينصفه حقه إلا القائمون على جائزة الملك فيصل العالمية، الذين منحوه جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام – مناصفة – عام ١٩٩٠م.

رحم الله الطنطاوي، وجزاه عن أمته خير الجزاء، فقد قدم الكثير الكثير. ■

الهوامش:

١- ملحق الأربعاء – ١٤١٩/٢/٢٨هـ – ص ١٨.
٢- المصدر السابق.
٣- مجلة الإعلام – عدد (٣) رمضان ١٤٢٠هـ.
٤- د. أحمد بسام ساعي – الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد / ص ١٣٩ – دار المنارة، ط ٨، ١٩٨٥م.
٥- الشرق الأوسط – عدد (٧٥١٠) في ١٩٩٩/٦/٢١م.
٦- المصدر السابق.
٧- من حديث النفس – ص ٩٠/ دار المنارة، ط ٤/ ١٩٩٠م.
٨- الشرق الأوسط – ١٤٢٠/٣/٢٠هـ.
٩- صور وخواطر – ص ٧٨ / دار المنار / ط ٢ – ١٩٩١م.
١٠- المصدر السابق – ص ٧١.
١١- مقالات في كلمات – ص ٩٩/ دار المنارة – ط ٢ – ١٩٩٨م.
١٢- مع الناس – ص ٢٠٦ / مصدر سابق.
١٣- صور وخواطر – ص ٩٩ / مصدر سابق.
١٤- نشر أول مرة سنة ١٩٣٩م، وصدرت الطبعة السادسة منه عن دار المنارة / سنة ١٩٩٦م في ٢٧٠ صفحة.
١٥- وذلك في قصة «رجل وامرأة» ص (١٩٦ – ٢٠١). قصص من التاريخ / ص ١٩٦/ ط ٥ / ١٩٩٥م – دار المنارة.
١٦- المصدر السابق – ص ١٢٨.
١٧- المصدر السابق – ص ٥٣.
١٨- المصدر السابق – ص ٣٦.
١٩- من حديث النفس – ص ٧٧/ مصدر سابق.
٢٠- مع الناس – ص ١٣١/ مصدر سابق.
٢١- رجال من التاريخ – ص ١٦٦/ دار المنارة / ط ٨ – ١٩٩١م.
٢٢- صور وخواطر / ص ٢٤٠/ مصدر سابق.
٢٣- المصدر السابق – ص ٨٥.
٢٤- فكر ومباحث – ص ٧٨/ دار المنارة، ط ٢/ ١٩٨٨م.
٢٥- المصدر السابق – ص ١٩٣.
٢٦- رجال من التاريخ – ص ١٦٥/ مصدر سابق.
٢٧- المصدر السابق – ص ٨١
٢٨- المصدر السابق – ص ٤٧٥.
٢٩- في سبيل الإصلاح – ص ٢٠٧/ دار المنارة – ط ٣ – ١٩٩٠م.
٣٠- فكر ومباحث، ص ٣١.
٣١- فكر ومباحث – ص ٣٢/ مصدر سابق.
٣٢- ذكريات الشيخ علي الطنطاوي – ج ٨ – ص ٣٤٣/ دار المنارة – ط١/ ١٩٨٩م.
٣٣- في سبيل الإصلاح / حاشية الصفحة ٧١/ مصدر سابق.
٣٤- رجال من التاريخ – ص ١٦٧/ مصدر سابق.
٣٥- فكر ومباحث – ص ٢٠ / مصدر سابق.
٣٦- المصدر السابق – ص ١٤٧.
٣٧- من حديث النفس / ص ١٧/ مصدر سابق.
٣٨- المصدر السابق ص ١٧٣.
٣٩- هتاف المجد – ص ١٧٥/ دار المنارة / ط ٢ – ١٩٩٠م.
٤٠- في سبيل الإصلاح – ص ٧٤/ مصدر سابق.
٤١- المصدر السابق – ص ٣٣.
٤٢- فكر ومباحث – ص ١٠/ مصدر سابق.
٤٣- مقالات في كلمات – ص ١٧٨/ مصدر سابق.
٤٤- فكر ومباحث. ص ٧، مصدر سابق.
٤٥- المصدر السابق – ص ١٣.
٤٦- في سبيل الإصلاح – ص ١٦٦/ مصدر سابق.
٤٧- من قصيدة نشرتها جريدة الرياض ، بعد وفاة الطنطاوي بأيام.
٤٨- قصص من التاريخ – ص (٥٨ – ٥٩) مصدر سابق.